أنور شاؤل

مذكرات صباغ أحذية

اسلوب مبتكر في نقد بعض المعايب الاجتماعية

نشرت متسلسلة في مجلة الحاصد الأسبوعية
في أعدادها 12 – 31 من سنتها السادسة
(16 تموز – 26 تشرين الثاني 1936)

(حقوق إعادة النشر بأية صورة كانت محفوظة لعائلة الكاتب)

بالبريد السري

« الحقيقة اغرب من الخيال » هذه جملة كثيراً ما قرأتها في الجرائد والمجلات ومجموعات القصص . فكنت اقول كلما وقع نظري عليها انها من مبتكرات الانشاء العصري لاستئسار الباب القراء وامتلاك مشاعرهم حتى اذا ما حدثت لي الحادثة التي ادونها اليوم تبدل رأيي وانصفت الكتاب والمحررين وما عدت اصفهم بالمهوشين المبالغين !

يا لله امكن ان يكون ذلك ! فتاة مهذبة متعلمة من عائلة معروفة تحب صباغ احذية وعلى ما تحبه ، السعادة وهي مفقودة في الحاضر ام لامل وهو معدوم في المستقبل . هذا اذا تركنا الماضي وعنعناته ؟

كنت قبل ذلك اليوم الرهيب احس شيئاً غريباً في حركاتها وسكناتها عندما كانت تقدم لي الاحذية للصبغ ، كانت تقدمها برفق ، بيدها هي لا بواسطة الخادم لم تكن ترميها رمياً كما يفعل الكثيرون . وكنت غالباً اقرأ على وجهها آيات الخجل . . . الخجل من تكليفي بصبغ احذية العائلة .

وفتاتنا « ك » تناهز العشرين من سنيها ، جميلة معتدلة في جمالها الا ان لها الشيء الكثير من سحر الجاذبية الجنسية كنت والحق اقول لا اجرأ ان اوجه نظري اليها واذا وجهته فلنظرة خاطفة بريئة .

قالت صباح ذات يوم بعد ان انتهيت من الصبغ ان علي ان احضر مساء لصبغ حذائين آخرين ليس بالامكان تقديمهما الآن . قلت « حاضر » وانصرفت .

ولاحظت ان طلبها مني المجيء مسألة قد عبرت عنه بلهجة تأكيدية خاصة انتبهت لها بادئ بدء ولكنني لم اعبأ بها . وفي المساء حضرت على عادتي فقدمت لي زوج حذاء واظنه حذاء امها فصبغته ثم قدمت لي حذاء آخر وقالت لي بصوت منخفض : هذا حذائي . . اصبغه جيداً ونظف بعض الاطيان في داخله .

وشددت بلهجتها اذ قالت « في داخله » وانصرفت تاركة اياه لوحدي . مددت يدي في الحذاء لابدأ عملي فاذا بي اشعر بشيء يصدم اصابعي ؟ ماهذا يارب ؟ انها ورقة افيمكن ان تكون رسالة ؟ ولمن ؟

أطبقت باصابعي على الورقه ورحت أصبغ بسرعة البرق . . . كنت أشعر بهول الموقف . ما هذه الأفكار تزدحم في فكري بل ماهي هذه الصور الغريبة تمثل امامي ؟ فرغت من صبغ حذائها فتركته في محله دون ان أطالب بالاجرة التي كثيراً ما تراكمت لدى العائلة وتركت الدار لا الوي على شيء !

اخشى ان لعنة الله قد حلت علي فقد وجدتني في مأزق حرج قد يصعب شرحه فالرسالة كانت تقرأ هكذا :

« ستستغرب كثيراً وصول هذه الرسالة اليك ولربما سيكون استغرابك اكثر من هذا اذا علمت انها رسالة ابغي من وراء ارسالها الاعراب لك عن شعوري العميق لا تعجب ! هكذا حكمت الاقدار انني ابحث عن القلب الذي بوسعه ان يفهمني ولا يهمني بعد ذلك اكان هذا القلب في صدر فتى متمول او موظف كبير اوصباغ احذية . اعتقد،اعتقاداً قوياً ، انني ساجد فيك ضالتي المنشودة ، فان امارات وجهك لتنم عن ذلك وان اخلاقك لتبرهن عليها.

ستقول لي ان اقدامي هذا سيكلفني تضحيات جمة . وانا اعرف ذلك وقد اعتزمت تقديم القرابين اللازمة.. سأضحي اذا نطقت بكلمة . . . .

درست أحوال شباب اليوم ، وسبرت غور مشاعرهم فاذا هم على ثلاث فصائل ، شاب يهوى في الفتاة ما تملك من مال موروث او سوف يورث.

وآخر يعبد منها ما لذويها من مكانة وثالث يتطلب شيئاً يختلف عن هذا وذاك هو شهوة جامحة !

هؤلاءهم شباب اليوم و يا للاسف ، وان قلبي ليقول لي انك تختلف عنهم فهل اناصادقةفيما اظن ؟ ابعث الجواب بالطريقة نفسها . »

« المخلصة ابداً »

كنت كلما توغلت في قراءة الرسالة ازداد رأسي دورانا هذه هي الأرض تدور بي الفضاء . يا الله ما هذه الرسالة الرهيبة ؟

الحب الحب . . . الذي طالما قرأت عنه يبادرني بهذا الهجوم العنيف دون ان اكون مستعداً لمنازلته او مجابهته على الاقل .

وازدحمت الافكار والتعليلات والتأويلات والاستنتاجات في دماغي حتى خشيت ان يتكسر من ضغطها قحف رأسي واني ليعتريني الخجل الآن ان اعترف بانني عبثاً حاولت التوصل الى مخرج ينقذني من هذا المأزق الحرج .

وحل الليل بنجومه اللامعة وبدره الكامل ونسماته المنعشة فقضيته سهران حيران ، اتقلب تارة على جنبي واتطلع طوراً الى هذه المسامير النافذة في قبة الفضاء . أأجيب عن هذه الرسالة ام لا اجيب ؟ واذا كان علي الا اجيب فما هي حجتي في ذلك ؟ واذا كان علي ان اجيب فماذا اكتب ؟ !

القرار الاخير

حقاً انها كانت ليلة رهيبة ، هي الأولى من نوعها في تاريخ حياتي ، وعسى أن تكون الاخيرة . اكثر من خمسين مرة انتهيت الى رأي بشأن هذه الرسالة الغريبة واكثر من خمسين مرة نبذت هذا الرأي . ولربما يتعذر عليك ان تتصور ما كان يعتريني إذ ذاك من عوامل مختلفة متباينة متضاربة من امل ويأس ، جرأة وخوف ، اعجاب واشمئزاز وكيف تستطيع ان تتصور ذلك ما لم يقدر لك - استغفر الله - ان تقف الموقف نفسه ؟ !

وفي الساعة الحادية بعد منتصف الليل كنت في زاوية من غرفتي اكتب واشطب واكتب ثم اذا قرأت ما كتبت مزقته قطعاً صغيرة . ثم عدت الى الكتابة والشطب والتمزيق وهكذا حتى استقر شكل الجواب على ما يلي :

« ايتها الآنسة

لم استغرب وصول كتابك الي لانني تعودت حياة العجائب والغرائب حتى اصبح وجودي سلسلة منها . كما انني لم اعجب من هذا المركب الخشن تقدم فتاة على ركوبه لانك لست اول فتاة ركبت رأسها وطوحت بنفسها في مهاوي البؤس .

إنما إنا أرثي لعقلك من صميم القلب . فالظاهر انه فريسة افكار خاطرة ونظرات زائفة . تمدين يدك الي ناسجة على منوال خيالي مما قد قرأته في فصول الروايات ، او شاهدته على شاشة السنما ، وقد جهلت - وارجو ان تعذريني لتعبيري الخشن هذا - ان منمقات التأليف شيء وحقائق الحياة المرة شيء آخر .

فكري في العاقبة قبل الدخول في هذا الموضوع الشاق ، ليس هذا الامر انشاء مدرسياً يسهل عليك تدبيج خاتمته حسبما يتبادر الى ذهنك . المسألة مسألة حياة ومماة ! غداً سيلوك الناس اسمك واسم عائلتك ويسلقونك بالسنة حداد ، ستقولين ان هذا لا يهمك ما دمت قانعة راضية في اعماق نفسك . هذه حكمة عرجاء عقيمة قيلت كثيراً فلم تلد شيئاً . قد يمكن التمثل بقول كهذا لو كنت قد اعتزمت الحياة في تلك الجزيرة التي عاش فيها « روبنسون كروزو » مع خادمه « جمعة » ان كنت قد صممت على ذلك فلا بأس

من تفكيرك هذا فهو على اتم ما يكون من الصحة !

ان المجتمع ايتها الآنسة قاس جداً ، لا يرحم اذ لا قلب له، ولا ينظر اذ لا عين له . انما هو ينظر بشقوق السنين الحوالي ويشعر بصخور العوائد والتقاليد ! فان حاولت الخروج عما رسمه المجتمع فقد يكلفك ذلك الشيء الكثير ولربما يكلفك كل ما تملكين في الحياة . يكلفك ما يكلف خيوط الحرير نزعك اياها من الشوك والعوسج فتصوري .

الخلاصة لست مستعداً لتشجيعك على مغامرة عقيمة كهذه فانا امرؤ وهبني الله نعمة كبيرة - ربما تكون الوحيدة - هي ان احيا بعقلي لا بعاطفتي وارجع اليه في المآزق لا الى قلبي.

مزقي كتابي هذا بعد قراءته بامعان كما انا مقدم الآن على تمزيق كتابك ! »

« خادمكم المطيع »

وبحركة اوتوماتيكية مزقت كتابها بثبات وبطء فشعرت ان عطراً بنفسجياً يفوح من اوصاله فخيل لي انني نثرت زهرة بنفسج لا ورقة رسالة !

ونمت ما بقي من ليلتي هادئاً مطمئناً وفي الصباح نهضت مبكراً يبدو على حركاتي شيء من الارتباك . كان اول شيء قمت به انني اعدت تلاوة الجواب الذي كنت قد حفظته تحت وسادتي .

خطر لي ان اعيد النظر مرة اخرى في قراري ولكني سرعان ما كبت هذا الخاطر كبتاً ... عاد الى الظهور فكبته ورأيت ان الاوفق ان ابادر الى صاحبتي واسلمها الجواب فارتاح .

كان الوقت ضحى عندما جلست اصبغ حذاءها وكانت هي تروح وتغدو بالقرب مني بصبغ وجهها لون احمر يستشف منه الناظر دمها الحار المتدفق . وكانت الرسالة في يدي داخل الحذاء. يا للموقف الرهيب، كنت اشعر كاني مقدم على امر رهيب لم اتذكر انني شعرت بمثل معشار هذه الرهبة عندما اقدمت على امتحان بكالوريا السادس المشؤوم !

وفي اللحظة الاخيرة انفجرت الافكار المتباينة في دماغي ثانية. فقلل هذا الانفجار من سرعة الفرشة أليس الاجدر ان اعدل عن تقديم الجواب بهذه السرعة . الا يمكن ان يجرنا الدخول في المراسلة الى النار التي حاولت تحذيرها منها ؟ واي لوم علي اذا لم اجاوب ؟ هل انا الا صباغ احذية امي لا يقرأ ولا يكتب؟ وكانت الفكرة الاخيرة « انني صباغ امي » اشبه بالهام هبط على كل مشاعري فالجمها واوقفها عند حدها .

فرغت من الصبغ وتركت الدار على عاتقي حاملاً معي الجواب وغبت عن الانظار فكيف كان وقع الحادثة عليها ؟ هذا ما لم افكر فيه عميقاً . انما رأيت من الاصلح الا

انقطع فجأة فقصدت العائلة في اليوم التالي فحاولت الفتاة ان تتأكد من انني اجهل القراءة والكتابة فسألتني عما اذا كنت قرأت خبر عزم الحكومة على حصر المهن - ومنها الصباغة - بالعراقيين، فاجبتها وكيف يتسنى لامي مثلي قراءة مثل هذا الخبر الخطير ؟

وتتالت الايام بين مد وجزر وفي صباح يوم مشرق الاسارير طرقت باب العائلة على عادتي فلم اسمع جواباً انما قرأت ورقة ملصقة كتب عليها ما يلي بحروف خشنة :

« مصروض للايجار »

« المراجعة مع صاحب الدار الحاج ....

في مقهى امين »

وهنا قلبت الصفحة الاخيرة من هذه الدراما الفريدة !